الفصل الثالث

مفهوم الحضارة الإسلامية وأهمية دراستها

الحضارة الإسلامية تلك الحضارة التي شيدها الفكر الإسلامي قوامها الإسلام بشموله؛ أحاطته بالحياة الدنيا وإصلاح هذه الحضارة على منهج الإسلام والقرآن وسنة رسول الله ﷺ، وهي حضارة ربانية إذ أنها تنتمي للعلم الذي جاء به رسول الله ﷺ، والحضارة الإسلامية قرينة التقدم العلمي إذ أنها أشاعت روح التقدم في كل أنحاء العالم، واستفادت الحضارة الإسلامية من كل الحضارات السابقة وتفوقت عليها، ومفهوم الحضارة الإسلامية ساد كل أنحاء الدنيا وأنها حضارة شاملة وإنسانية تعلي من شأن الشورى والحرية والعدل والمساواة كل ما اشتهر بأنه حقوق الإنسان.

عرفت الحضارة الإسلامية حقوق الإنسان التي لم تعرف إلا بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨م؛ تلك الحقوق التي ظلت حبراً على ورق، وفي الحضارة الإسلامية تم تطبيق حقوق الإنسان التي لازالت الحضارة المعاصرة تلهث في طريقها ولم تذق طعمها بعد.

حضارة بهذا المفهوم لابد أن تكون لها أهميتها ولابد أن تتم دراستها، تعد الحضارة الإسلامية أهم حضارة من الحضارات التي سبقتها والحضارات التي جاءت بعدها وإن انتقص من قدرها بعض المتعصبين من مفكري الغرب، غير أن الكثيرين أبرزوا أهمية هذه الحضارة وكتبوا عنها وعن أهميتها نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر صاحب كتاب (حضارة العرب) د. غوستاف لبون نقله إلى العربية عادل زعيتر طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٢م، والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب: دراسة أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا) من منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، نقله إلى العربية كل من فاروق بيضون وكمال دسوقى عام ١٩٨٦م، ومما يدل على أهمية الحضارة الإسلامية أقوال بعض المستشرقين؛ يقول المستشرق جوستاف لوبون: إن العرب

هم الذين خدموا أوروبا في المادة والعقل والخلق ومتي ما درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما أنتجوه في هذه المدة القصيرة من ملكهم.

ويقول المستشرق بريس دافن: إنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي وذلك أولاً لكثرة فحول الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم وثانياً لما أحدثته فنونه وعلومه من التقدم العجيب مدة قرون عديدة.

ويقول رجاء جارودي المفكر الفرنسي المعاصر: إن الإسلام أنقذ العالم وأن القرآن عبر تعاليمه قد أعطى للملايين وعياً جديداً وحياة اجتماعية سليمة ونظرة اقتصادية وسياسية متكاملة، وبذلك استطاع المسلمون بأي قياس أن يبنوا أقوى دولة وأرفع حضارة ومدنية عرفتها البشرية حتى اليوم [1].

كل عاقل شرقي كان أو غربي يجعل للحضارة الإسلامية أهمية بالغة عندما امتلك المسلمون ناصية الثقافة في القرون الوسطي ونعموا بحرية الفكر والرأي ونالوا من الحياة الفاضلة الكريمة أوفى نصيب، كان الفقر والتخلف يعم أنحاء أوروبا التي كان يغطي الكثير من ساحاتها الغابات الكثيفة وتنتشر بها المستنقعات المتناثرة في أراضي المدن والتي تنبعث منها الروائح الكريهة والغازات السامة والأبخرة الضارة؛ كما أنها المصدر الأساسي للأوبئة الفتاكة.

وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى بالحجر المنحوت والطين المخلوط بالقش، وهي ضيقة النوافذ غير محكمة الإغلاق وأرضها تغطي بالقش المنثور لأنهم كانوا لايعرفون، وماكانوا يدرون البُسط، ولم يكن الناس في تلك المنازل أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات التي كانوا يؤونها معهم، أو يربونها من أجل الحياة على إنتاجها من لحم ولبن؛ وما تساهم به في الزراعة البدائية، وكان الغربيون في تلك القرون متوحشين جاهلين لا أمن فيهم ولا إدارة ولا حكام يعرفون واجبهم في إقامة العدل وتوطيد الأمن، وهم في كل

(١) د. محمد كمال شبانه، الإسلام فكرة وحضارة، القاهرة، دار العالم العربي، ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، ص٧.

أحوالهم إلى حياة البادية أقرب منهم إلى حياة المدن [1]. تظهر لنا أهمية الحضارة الإسلامية عند دراسة الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك الزمان، والتي يظهرها ما تقدم من سطور وكيف أن أوروبا كانت موغلة في التخلف. وتظهر أهمية الحضارة الإسلامية لأثرها في الغرب النصراني، وقد كان تأثير العرب المسلمين عظيماً في الغرب، إن تأثير العرب في الغرب عظيم وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه في الشرق؛ ولكن بمعنى آخر فإن تأثيرهم في الشرق تراه بادياً في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص، وأما تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صفراً، وترى تأثيرهم الفني واللغوي فيه ضعيفاً، وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيما [2].

فإن قوله: تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صفراً جانبه الصواب. ولا يمكن إدراك شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا؛ حينما أدخلوا الحضارة إليها إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب؛ كانت أبراجاً يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من السر فوق ماهو ضروي لنسخ كتب العبادة.

ودامت همجية أوروبا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك عندما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم [3].

من هنا اكتسبت الحضارة الإسلامية أهميتها وأصبحت جديرة بالإهتمام والدراسة والمعرفة؛ لأنها حضارة قادت العالم في المشارق والمغارب للرقي،

---

(١) عبد السلام حمدي اللمعي، صراع الحضارات وحوار الدبابات، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م، ص١٥٣.
(٢) حضارة العرب، د. غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ص٥٦٦.
(٣) المرجع السابق، ص٥٦٦-٥٦٧.

والحضارة الإسلامية لها خصائص تزيد من أهميتها وتجعل دراستها والمعرفة بها مهمة نذكر من هذه الخصائص:

أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي أول حضارة تنادى بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه هو وحده الذي يعبد وهو وحده الذي يقصد إياك نعبد وإياك نستعين، وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنح وما من شئ في السموات والأرض إلا هو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين وتوجيه الأفكار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين، كما كان لهذه العقيدة الأمر الأعظم في ترسيخ التوحيد والوحدة الإسلامية .